نعمة الإخلاص

لن يستطيع أحدٌ أن يَحُولَ بينك وبين إخْلاَصِك لربك. وتلك أفضل النِّعم، بل أعلاها وأبقاها، وإذا تحققت لك هذه النعمة فأنت بها رضيٌّ، وأنت بها غنيٌّ. والرضى لا يتوقف على الكم، فكم من إنسان قَلَّ ما في يده وهو مع هذا القليل هانئ وسعيد، وكم من إنسان كثر ما في يده وهو مع هذه الكثرة شارد الفكر موزع القلب.

والغنى لا يكون عن كثرة المال أو سعةِ المتاع. وإنما يكون بطمأنينة النفس بذكر الله ورضاها بربِّها.

والرسول ﷺ يقول: في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ: « **لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ** » (١)

وروى مسلم عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ** » (٢)

إن النفوس في حاجة دائماً أن تُعْصم بمعرفة الله؛ حتى تكون جميعُ الأعراض المتباينة عاملةً في بناء النفس لا في هدمها، ولا يصون النفسَ في الأحوال كلها إلاَّ ما في القلب من الغنى والخير، وليس الخير فيما تعطى من مال وبنين، وإنما الخير فيما تحمل من صدق إيمان وخالص يقين.

ولقد كان رسول الله ﷺ يكلُ رجالاً إلى ما جعل الله في قلوبهم ويثني عليهم. ويعطي رجالاً ليطفئ ما في قلوبهم من جَزَع وهلع.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

روى البخاري ﷺ عن عمرو بن تَغْلِبَ ﷺ أن رسول الله ﷺ أُتيَ بمالٍ أو شيء فَقَسَمه، فأعْطَى رجالاً وترك رجالاً، فَبَلَغَه أنَّ الَّذين ترك عَتَبُوا، فحمد الله تعالى أثنى عليه ثم قال: « **أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّه إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الَّذي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ – فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ – فَوَاللَّه مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ** » [1]

إن من وكلهم الرسول ﷺ إلى ما جعل الله قلوبهم أكثرُ فرحاً ورضىً ممن أعطاهم. فإنهم بما في نفوسهم أغنياء. وبرضى الرسول ﷺ عنهم وزيادة حبِّه لهم سعداءُ « **والذي أدعُ أحبُّ إليَّ من الذي أعطى** » ويعبِّر عمروُ بنُ تَغْلِب عن سعادته ورضاه بقوله: ما أحبُّ أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعم. أي: كرائمُها. وهو مثل في كل نفيس.

« **وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّهُ** » [2]

لن يستطيع أحد أن يحول بينَك وبين إخلاصك لربك. وتلك نعمة إذا تحققت لك لم يَفُتْكَ شيء؛ لأنك بها طاهر النفس سليمُ القلب، لا تحمل حقداً ولا حسداً، خيرُك في طهارة نفسك، ونَفْعُك في سلامة قلبك، ولا يكون ذلك إلا بإخلاصك لربك، ولن يستطيع أحد من الناس أن يحول بينك وبين هذا الإخلاص.

ولكن عليك أن تحيا بهذا الإخلاص في سلوكك العملي، وتمضي في شئونك كلها محققاً له مستنداً إليه. عندئذ يبطل الرياء ويذهب النفاق. وترتفع النفوس عن الدنايا فتحقق المودة بين الناس.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

في زحمة الحياة وصراعها قد يقع من الناس ما ينافي الإخلاص، فعلى الإنسان أن يذكر في كل شئ عاقبته، وأنْ لا يتلهى بالرغائب عن العواقب، فإن لحظة الموت يتلاشى معها كل مرغوب من أمر الحياة، وتواجه النفس ما قدمت لغد وما عملت من خير. وتتمنى لو كانت الحياة كلُّها أقيمت على الإخلاص واقترنت به. ولم يضيعْ من العمر لحظةً واحدةً في غير طاعة الله وابتغاء مرضاته ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]

روى مسلم عَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: « حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، فَبَكَى طَوِيلاً، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا ؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا ؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقِ ثَلاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَلا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ. فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ. قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ. وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ؛ إِجْلالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لأَنِّي لَمْ

(١) آل عمران : ٣٠.

أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ. وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا؛ حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي » [1]

أخي المسلم:

أرأيت كيف يكون الإنسان عند مفارقته هذه الدار. وأيَّ عمل يرجوه، ومن أي عمل يَفِرّ.

إنَّ خير ما أعدَدتم لغدكم إخلاصُكم لله وحده؛ فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝ ﴾ [2]

إن الإخلاص هو الذي يجمع أمرَك، ويعصم فكرك، ويُخضِعُ رغائبكَ لطاعة ربك، ويحول بينك وبين أن تجلس على موائد العباد. ترجوهم وقد ضعفوا، وتخافهم وقد عجزوا. وليس عندهم ما ترجوهم له، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً.

إن الإخلاص لله وحده هو الذي يجعلك عزيز النفس، أبيَّ القصد، لا تعطي الذلَّة من نفسك، ولا تسجُد لغير ربك: تَعْلَمُ أن الله هو الغني فلا تطلب إلا منه، وأنه القوي فلا تخشى أحداً سواه، وأنه العليم فلا تختفي بمعصية، وأنه الرازق فلا تمن على الناس بعطاء، وأنه الغفار التواب الرحيم فلا تفر بذنب ولا تقنط من رحمة الله.

إن الإخلاص الذي يحبُّه الله لك، لا سلطان لأحدٍ من العباد عليه، ولا شأن للمخلوقات فيه. وهو وحده باب عزك، وطريق مجدك، وأمان يومك، ورجاء غدك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البينة : ٥.

وبه وحده يتم فوزك على ألدّ أعدائك ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم:

روى الترمذي عن أبي العباس عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال لي: « **يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَات: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ** » (٢)

وفي رواية غير الترمذي: « **احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ.... وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** » (٣)

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

❁❁❁

(١) النحل : ٩٩، ١٠٠.

(٢) رواه الترمذي

(٣) رواه أحمد.